

الفصل الأوّل

حِقْبة ما قبل الإصلاح

يُجمع المؤرّخون على تحديد الحقبة التاريخية لانطلاق حركة الإصلاح الإنجيلي بالقرن السادس عشر، وذلك بواسطة المصلح الإنجيلي مارتن لوثر الذي أطلق حركة الإصلاح الإنجيلي في أوروبا ابتداءً من ألمانيا. إلا أنّ المؤرّخين رصدوا أيضاً ظهور حركات ومجموعات إصلاحية ومصلحين في أوروبا قبل حركة الإصلاح، ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر. وانتقدت تلك المجموعات وأولئك المصلحون فساد الكهنة وبعض تعاليم الكنيسة وممارساتها في تلك الحقبة، وعملوا على إصلاحها داخلياً، مُنادين بمبادئ إصلاحية تدعو للعودة إلى تعاليم الرسل والكنيسة الباكّرة شبيهة بالمبادئ التي نادى بها المصلحون الإنجيليون الأساسيون الثلاثة: مارتن لوثر، وأولترخ زوينغلي، وجون كالفن.

ومن هذه المجموعات الإصلاحية والمصلحين:

مجموعة "كثاري"

هي مجموعة تقوية اكتسبت أهميّة في جنوب فرنسا نحو عام ١١٧٠ م. وقد عرّفت باستخدامها الكبير للكتاب المقدّس - حيث ترجمت نُسَخاً من العهد الجديد

ووزَّعَتْهَا- وكذلك برفضها بعض أجزاء العهد القديم. وانتقدت هذه المجموعة سلطة التقليد الكنسي وعقائد مثل: المَطْهَر، وتقديس الصور (الأيقونات)، وبعض الأمور الأخرى، كما رفضت سلطة البابا. إلا أن الكنيسة لم تسمح بانتشارها، بل شنت حملة عليها وأنهت وجودها.

مجموعة "الوالديين"

برزت ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد اكتسبت اسمها من المصلح پيتر والدس (١١٤٠-١٢١٧م) الذي كان تاجرًا ثريًا في فرنسا، وتأثر- في أثناء قراءته الإنجيل- بقول الرب يسوع للشباب الغني: "إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا فَادْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ تَبْعَنِي" (متى: ١٩: ٢١). وهكذا، نفذ كلام المسيح الذي أعلنه الكتاب المقدس حرفيًا؛ فباع أملاكه وتبع المسيح، وعاش واعظًا فقيرًا متجوّلًا يركز بكلمة الله. وقد جذب وعظه وأسلوب حياته أتباعًا له. وازدادت هذه المجموعة وانتشرت سريعًا في عدة دول أوروبية. ورغم معاقبتهم بالموت أو بوسائل أخرى من الاضطهاد، فإنه لم يكن ممكناً التخلص منهم تمامًا. وتميّزت هذه المجموعة بتنوع آراء أفرادها بشأن نظرهم للكنيسة؛ فرأى البعض أن كنيسة روما هي كنيسة المسيح الحقيقية رغم فسادها، واعتقد البعض الآخر أن كنيسة روما تركت المسيح وفقدت تأثير الروح القدس. وهكذا تمسك بعضهم- أكثر من غيرهم- بتعليم الرسل. وفي اقتباس من كتاب "تاريخ الكنيسة" للكاتب واري، أشار إلى أن الملك لويس الثاني عشر أرسل رسلاً للتقصي عن "الوالديين" الذين اتهموا باقتراف الجرائم، وتهديد استقرار المجتمع؛ فزاروا أبرشياتهم ولم يجدوا صورًا للتقديسين، أو ما يشير إلى الذبيحة الإلهية، أو طقوسًا تمارسها الكنيسة الرومانية.

وتبيّن أنّهم كانوا يعبدون الله يوم الأحد، وكانوا يعمّدون أولادهم، ويعلمونهم مبادئ الإيمان المسيحي ووصايا الله. ولم يجدوا أيّ إثبات ودليل على الجرائم التي اتّهموا بها. وعندما رجع الرسل وأخبروا الملك بنتائج استقصائهم، قال الملك إن أولئك الناس (أي الوالديين) أفضل منه وأفضل من شعبه. إلّا أنّ أعداء هذه المجموعة اتّهموهم باقتراف الجرائم، وحسبوا عقائدهم خاطئة، وتخلّصوا من كتاباتهم الأساسية، وهكذا فُقدت المعلومات بشأن العديد من معتقداتهم. فالسلطة الكنسيّة لم تسمح بامتداد تلك الحركة الإصلاحية، لاعتقاداتها الراديكاليّة، بل إنّها أعلنت حرمانهم وخروجهم عن الكنيسة عام ١٢١٧ م.

مجموعة المصلح جون ويكليف (١٣٢٤-١٣٨٤م)

برز ويكليف في إنكلترا في القرن الرابع عشر. وقد كان فيلسوفاً ولاهوتياً ومصلحاً عظيماً. عاش في أكسفورد وعلم في جامعتها. وقيل إنّهُ "كوكب صبح الإصلاح". درس في جامعة أكسفورد وتميّز، وأصبح أستاذاً في علم اللاهوت، وتبوأ عدّة مناصب في الجامعة. وعلم أنّ الكتاب المقدّس هو الشريعة الوحيدة للكنيسة. وترجم الكتاب المقدّس إلى اللغة الإنكليزية- لغة الشعب- ما بين عامي ١٣٨٢ و١٣٨٤م، ودافع علانية عن حقّهم في قراءة الكتاب المقدّس بلغتهم الأم. واعتقد أنّ الحياة الرهبانيّة لا أساس لها في الكتاب المقدّس. ونازعته الكنيسة نزاعاً شديداً لأنّه وافق أنّ تصادر الدولة أملاك بعض الكهنة غير الملتزمين أن يعيشوا بما يتناسب مع ما يعلمه الإنجيل. وانتقد سلوكيّات بعض الكهنة، وعدم أهليّتهم لخدمة الله. وقاد مجموعة من المحتجّين الذين انتقدوا بعض ممارسات الكهنة السيّئة. وقارن ويكليف ما بين أخلاقيّات الوصايا العشر، والسلوكيّات غير المقبولة لبعض الكهنة

لِيُظْهِرَ أَنَّ سُلُوكِيَّاتِهِمْ لَا تَنْسَجِمُ مَعَ مَتَطَلِّبَاتِ الْوَصَايَا الْعَشْرِ. وَبِسَبَبِ فَسَادِ حَيَاةِ بَعْضِ الْكَهَنَةِ وَعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِمْ، أَرْسَلَ بَعْضَ الْكَهَنَةِ الْفُقَرَاءِ الْمَكْرُسِينَ وَالْمُسْتَقِيمِينَ لِلْعُظ. فَتَجَوَّلُوا اثْنَيْنِ فِي أَرْجَاءِ الْبِلَادِ، وَاشْتَعَلُوا بِأَيْدِيهِمْ عِنْدَ الضَّرُورَةِ. وَهَكَذَا، رَحَّبَ الشَّعْبُ بِخِدْمَتِهِمْ تَرْحِيْبًا كَبِيرًا. وَانْتَقَدَ وَيْكَلِيفَ نِظَامَ التَّقَشُّفِ فِي الْكَنِيسَةِ، وَدَعَا إِلَى خِدْمَةِ عِبَادَةِ بَسِيْطَةٍ عَلَى مِثَالِ الْكَنِيسَةِ الْبَاكِرَةِ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. وَدُعِيَّتْ مَجْمُوعَتُهُ بِاسْمِ "لَوْلَارْد". وَقَدْ أَدَانَتْ الْكَنِيسَةُ أَفْكَارَ وَيْكَلِيفَ، وَجَرَتْ عِدَّةُ مَحَاوَلَاتٍ لِسُجْنِهِ، لَكِنَّهَا بَاءَتْ بِالْفَشْلِ بِسَبَبِ وَقُوفِ أَصْدِقَائِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى جَانِبِهِ. وَسُمِّحَ لَهُ بِالتَّقَاعِدِ فِي أِبْرَشِيَّتِهِ، حَيْثُ مَاتَ مَوْتًا طَبِيعِيًّا. وَهَكَذَا انْتَهَتْ مَجْمُوعَتُهُ تَقْرِيْبًا بَعْدَ مَوْتِهِ. وَلِلْأَسْفِ، لَمْ يَتْرِكْ وَيْكَلِيفَ أَتْبَاعًا مُمَيِّزِينَ يَخْلَفُونَهُ لِيَكْمَلُوا الْعَمَلَ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ أَتْبَاعِهِ ظَلُّوا نَاشِطِينَ سِرًّا حَتَّى حُلُولِ زَمَنِ الْإِصْلَاحِ. وَانْتَقَلَتْ كِتَابَاتُهُ وَتَعَالِيمُهُ إِلَى بُوهِمِيَا (فِي جُمْهُورِيَةِ التَّشِيك). وَيَذْكَرُ أَحَدَ الْمَوْرُحِينَ أَنَّ تَأْثِيرَ وَيْكَلِيفِ الْأَسَاسِيَّ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِهِ بَلْ فِي بُوهِمِيَا.

مجموعة المصلح يان هاس (١٣٧٢-١٤١٥م)

برز هاس ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وتأثر كثيرًا بأفكار المصلح الذي سبقه جون ويكلييف، وكان تلميذًا متحمسًا له. ويرجع الفضل في قبول أفكار ويكلييف في بوهيميا أكثر من إنكلترا إلى جهود المصلح يان هاس الذي وُلِدَ فِي بُوهِمِيَا عَامَ ١٣٦٩م، وَقَدْ تَرَكَ إِصْلَاحَهُ أَثْرًا مَهْمًا. وَعَظَّ هَاسُ وَعَلَّمَ مَعْظَمَ الْعُقَاةِ الَّتِي نَادَى بِهَا وَيْكَلِيفَ. وَقَدْ اتَّخَذَتِ الْكَنِيسَةُ إِجْرَاءَاتٍ ضَدَّهُ حَيْثُ مَنَعَتْهُ مِنَ الْعُظ. فِي الْبَدَايَةِ، أَمَلَ هَاسُ إِصْلَاحَ الْكَنِيسَةِ دَاخِلِيًّا، وَحَازَ ثِقَةَ الْمَسْئُولِينَ عَنْهُ. وَانْتَقَدَ أَخْطَاءَ وَخَطَايَا الْكَهَنَةِ بِقَسْوَةٍ، وَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَغْفِرُ الْخَطَايَا. وَعِنْدَمَا عَيَّنَّهُ

مسؤولو الكنيسة ليتقصّى الحقائق بشأن بعض عجائب حدثت، لم يقتنع بما رأى. لهذا دعا أتباعه إلى وقف البحث عن الآيات والعجائب، والبحث في الكتاب المقدّس. وأدان بشدّة ممارسة بيع صكوك الغفران. وبسبب إدانته لها حُرِم من شركة الكنيسة. وعاش معظم حياته في براغ في بوهيميا. وأصدر كتابه "الكنيسة في براغ". واستدعته السلطات الكنسيّة إلى مجمع كونستانس للدفاع عن تعليمه الكتابي، لكنّ المجلس رفض قناعاته، وسلّمه إلى السلطات المدنيّة لإعدامه عام ١٤١٥م، دون أن يُمنَح فرصة الدفاع عن معتقداته. وقد استمر أثر إصلاح هاس في شعب بوهيميا لسنين عديدة.

مجموعة المصلح جبرولامو سافونزولا (١٤٥٢-١٤٩٨م)

برز سافونزولا في فلورانس الإيطالية، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. سئم من الشر والفساد اللذين رآهما مستشريين حوله، فترك العالم وأصبح راهبًا دومينيكانيًا ليهرب من شرور العالم. وعُرف بوعظه الحماسي الذي شابَه وعظ يوحنا المعمدان في تشديده على ضرورة التوبة. وانتقد فساد الكنيسة في مركز البابويّة في روما. وانصبّت اهتمامات سافونزولا على تنقية أخلاق الكنيسة أكثر من التركيز على العقائد. وفي البداية لم يصغ إليه أحد، إلّا أنّ الكاتدرائية التي خدم فيها امتلأت لاحقًا بالمصلّين. ولكنّ أسلوبه اللفظي - الذي لم يكن مقبولاً لدى البعض - أدّى إلى تكوين أعداء أقوياء له ومنهم البابا. وأمرت السلطات الكنسيّة سافونزولا أن يلتزم الصمت، وعندما لم يمتثل لتعليمات الكنيسة حُرِم من الشركة فيها، وأُلقي به في السجن. ثمّ اتّهم بالهرطقة، وأُعدِم رفقة أصدقاء له عام ١٤٩٨م. ومات سافونزولا حين كان المصلح مارتن لوتر في الخامسة عشرة من عمره.

إنَّ القاسم المشترك ما بين مصلحي حقبة ما قبل الإصلاح، ومصلحي حقبة الإصلاح الأساسي، هو انتقادهم بعض ممارسات الكنيسة وتعاليمها وعقائدها، وتركيزهم على الكتاب المقدس، ودعوتهم لإصلاح الكنيسة. إلاَّ أنه لم يتسنَّ لأولئك المصلحين النجاح في استمرار حركة إصلاحهم بسبب سلطة الكنيسة ونفوذها القوي في أوروبا، وعدم توافر البيئة السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والمدنيَّة والإنسانيَّة الملائمة، وعدم استعداد الساحة الأوروبيَّة للإصلاح، وعدم الترحيب بالمصلحين أو تأمين حمايتهم من قِبَل الأمراء أحياناً، ومن قِبَل الشعب في أحيان أخرى، فضلاً عن غيرها من الأسباب.